

(1)

(المحاضرة الأولى)

المؤسسات الفكرية لعصر ما بعد الحداثة

أولاً : النشأة والظروف التاريخية للظهور

- التأريخ الزمني والتسمية

شاع مصطلح "ما بعد الحداثة" منذ خمسينيات القرن العشرين ارتباطاً بالتحوّلات الاجتماعية والثقافية، إلا أن جذور المفردة تعود إلى استعمالات مبكرة؛ مثل استخدام "جون واتكنز ات شابمان" لمصطلح "الرسم ما بعد الحداثي" عام 1870م، ورودولف بانفتز عام 1917م، وفديكو دي أونيس عام 1934م، وتوينبي عام 1938م.

- المرجعيات والأحداث الفاصلة

تعددت الآراء حول نقطة البداية الفكرية والزمنية؛ فمنهم من أرجعها إلى أفكار نيتشه وماركس وفرويد وهيدجر، ومنهم من ربطها بنهاية الحرب العالمية الثانية، أو هبوط الإنسان على القمر عام 1969م، أو سقوط جدار برلين وتفكك الاتحاد السوفيتي عام 1989م، أو مع ظهور ثورة الحاسوب والتكنولوجيا في ستينيات القرن العشرين .

- التحوّلات الاقتصادية والاجتماعية

ارتبطت المرحلة بظهور المجتمع الاستهلاكي، وتطور تقنيات الإعلام والتواصل، والانتقال إلى الرأسمالية متعددة الجنسيات العابرة للحدود.

(2)

ثانيا : المفهوم والقضية الفكرية مع الحادثة

• موقفها من عقلانية التنوير

لم تكن ما بعد الحادثة مجرد تعديل بسيط في المسار الفكري، بل تبلورت بوصفها ثورة وردة فعل حادة على الحادثة والعقلانية الصارمة التي تبناها عصر التنوير؛ إذ اعتبرت أن ادعاء العقلانية والأنوار للوصول إلى أرقى مستويات الإدراك وتحرير الإنسان قد تحول -في واقع الأمر- إلى عامل من عوامل العبودية والمعاناة. وبناءً على ذلك، رفضت هذه الحركة الصرامة العقلانية ذات الطابع النسقي، وانفتحت على مظاهر كانت الحادثة تقصدها؛ كـ اللاعقل، والمتخيل، والعاطفة، والمقدس.

• تقويض الكليات والنسقية

اتخذت ما بعد الحادثة موقفاً رافضاً للنظريات الكبرى والشاملة التي تفسر العالم بنسق مغلق (كالأنظمة الماركسية ونظريات التحليل النفسي)، ودعت إلى تفكيك الذات ورفض الفكرة القائلة بوجود "مرجعية نهائية إنسانية أو موضوعية". كما عملت على تقويض مفهوم "الزمن الخطي" المتسلسل نحو التقدم، ودحضت الحدود الفاصلة بين مختلف الحقول المعرفية لحساب رؤية أكثر تشظياً وتشتتاً.

• تبني النسبي والعرضي وتفكيك المعنى

أسست الحركة لطرح مفاهيمي يقضي بعدم وجود "معنى ثابت أو جوهري" يكمن خلف الأشياء؛ فالأصل هو أنه لا شيء تحت السطح سوى السطح نفسه. وبذلك حلت مفاهيم التعددية، والتفتت، والانقطاع، والفوضى، والنسبية الكاملة محل المطلقات الحداثية، ليتراجع مفهوم "الجواهر الميتافيزيقية" لصالح الاهتمام

(3)

باليومي، والعرضي، والسطحي، معترفةً بأن التغير المستمر وحكم المصادفة هما الحاكمان للنتاج الفكري والإنساني

ثالثاً: التأثير على الفن والثقافة

• جماليات الفن ما بعد الحداثي:

انعكس التغير الفكري مباشرة على طبيعة المنتج الجمالي، فأصبح العمل الفني يبتعد عن الصرامة والوقار الميتافيزيقي التقليدي ليمتيز باللعب، والسخرية، والتهكم الذاتي (الباروديا). كما ظهرت "جماليات برية" لا تتورع عن إبراز ما هو قبيح أو نافر أو مبعثر، كموقف صريح يرفض النزعة الاستقلالية والتسامي اللذين ادعتهما الحداثة العليا.

• إلغاء التمايزات وتآكل الفواصل :

كان من أبرز نتائج هذا التحول محو الفواصل والمصنّفات الرئيسية التي أقادت الفن سابقاً؛ حيث أدت ما بعد الحداثة إلى تآكل الفاصل القديم بين "الثقافة العليا" (فن المتاحف والأوبرا والصفوة) وبين "الثقافة الجماهيرية أو الشعبية" (فن الشارع، الإعلانات، والإنتاج التجاري). وأصبح الفن ممتزجاً بالواقع الاستهلاكي ومظاهر الحياة اليومية .

• دور المستهلك وإعادة إنتاج المعنى :

تحول مركز الثقل في التلقي الفني من "المؤلف/الفنان" إلى "المستهلك/المتلقي". فلم يعد المعنى معطى جاهزاً يمليه السارد أو المؤلف، بل أصبح للمستهلك الحرية الكاملة في تفكيك العمل الفني وقراءته؛ وهو ما يعني أن كل متلقٍ سيصل إلى استنتاجات وتأويلات مختلفة تماماً تعبر عن تجربته الذاتية الخاصة التي لا يمكن تعميمها.

(4)

رابعاً: التحولات الفنية بعد الحرب العالمية الثانية

- تغير المركز الفني العالمي: أفرزت الحرب العالمية الثانية واقعاً ممزقاً ومدمراً في أوروبا، مما انعكس سلباً على المراكز الفنية التقليدية كباريس نتيجة الهجرة الجماعية للفنانين. وفي المقابل، صعدت الولايات المتحدة الأمريكية كقوة اقتصادية وعسكرية، وازدهرت فيها الحياة الفنية (خاصة في نيويورك) إثر نزوح رواد الفن الأوروبي إليها من وطأة الاحتلال النازي، ليتحول مركز الثقل الفني والفلسفي عالمياً نحو نيويورك
- استجابة الفن لسرعة التحولات: فرض نمط الحياة الجديد المتسارع — المحكوم بالتطور التقني المرتفع، والنمو الصناعي، والرأسمالية متعددة الجنسيات، وهيمنة وسائل الإعلام — على الفنانين مواكبة هذه المتغيرات الاجتماعية والنفسية العميقة. فلم يعد الفن ثابتاً، بل أصبحت أساليبه قائمة على التغير السريع والبحث المستمر عن أشكال تعبيرية جديدة.
- بروز الاتجاهات الحداثية البعدية: أسفر هذا الواقع الجديد عن ظهور حركات وتيارات فنية متلاحقة تعبر عن مجتمع الصورة والعولمة والتفكك، ومن أبرزها:
 1. التعبيرية التجريدية : التي تعبر عن المشاعر الداخلية والتفكك النفسي بعيداً عن التشخيص.
 2. الفن الشعبي (Pop Art) : الذي دمج بين ثقافة الاستهلاك والإعلان والرموز الجماهيرية في قلب الفن.
 3. الفن البصري (Op Art) : الذي اعتمد على الخداع البصري والتفاعل الحركي مع عين المتلقي.
 4. السوبررئالية (الواقعية المفرطة) : التي تنقل الواقع بدقة متناهية تتجاوز الحقيقة نفسها .
 5. الفن الجرافيتي : الذي اقتحم الفضاء العام وتجاوز أسوار المتاحف والمعارض التقليدية .